معركة الآزور

للشاعر الانجليزي ألفريد تنيسون

بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة

تقديم

في عام ١٥٥٨م توفيت « ماري تيودور » ملكة انجلترا الكاثوليكية التي كانت زوجاً لفيليب الثاني ملك أسبانيا . وتولت بعدها عرش انجلترا أختها من قبل أبيها الملكة اليصابات (وهي ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين) . وكانت اليصابات تعتنق المذهب البروتستانتي في اعتدال ؛ وقد حاولت خلال حكمها إرضاء الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، فأثارت بذلك حفيظة أسبانيا وفرنسا وغيرهما من الأقطار الكاثوليكية

وزاد في توتر العلاقة بين انجلترا وأسبانيا عوامل أخرى متعددة : منها رفض الملكة اليصابات التزوج من فيليب الثاني ملك أسبانيا ، وقد عرض عليها ذلك عقب وفاة الملكة ماري ... ومنها ما كان من انحياز انجلترا إلى ثوار الأراضي المنخفضة ضد أسبانيا ، وإيوائها الأغنياء منهم ممن خلصوا إليها عبر القنال بأموالهم وثرواتهم وكل ما تيسر لهم حمله

يضاف إلى ذلك قصة : ماري استيورت ملكة اسكتلندا الكاثوليكية ، تلك التي لاذت بانجلترا عام ١٥٦٨ م عقب ثورة الشعب الاسكتلندي ضدها ، فقضت هناك عشرين عاماً شبه أسيرة ؛ ثم ظهر من دسائسها ضد الملكة اليصابات ، وكانت ماري استيورت وريثتها الشرعية على عرش انجلترا ما استوجب التخلص منها بالإعدام عام ١٥٨٧م ؛ فقد أثار هذا التصرف ثائرة فيليب الثاني وحفزه للعمل . وكانت قوة انجلترا البحرية خلال هذه الحوادث المتلاحقة تنمو في اطراد ، وقد نشط البحارة الإنجليز في جوب البحار بحثاً عن كنوز الذهب والفضة التي سبقهم إلى اكتشافها الأسبان ؛ أو اقتناصاً للسفن الأسبانية العائدة بهذه النفائس من مستعمراتهم في العالم الجديد .

وفي عام ١٥٨٨ م سحق الإنجليز قوة أسبانيا البحرية بتحطيمهم الأرمادا التي حشدها فيليب الثاني لغزو بلادهم ، فرجحت كفتهم في البحار رجحاناً زاد على مدى الأيام ظهوراً

وبعد معركة الأرمادا بثلاثة أعوام حدثت موقعة الآزور (أغسطس ١٥٩١م) التي سجلت للانجليز صفحة خالدة من البطولة في عالم البحار .

فقد صارعت فيها سفينة واحدة صغيرة ، ثلاثا وخمسين سفينة إسبانية كاملة العُدة والعدد ، في ملحمة استمرت خمس عشرة ساعة لا يعتورها فتور .

وقد أوحى هذا الحادث إلى كتاب الإنجليز وشعرائهم قديماً وحديثاً ، بما لا تستوعبه المجلدات الضخمة من فائق النثور ورائع المنظوم .

ومن أشهر من كتب في ذلك : السير والتر رالى (١٥٥٢ ـ ١٦١٨م) ؛ وجيمس أنتوني فرويد (١٨١٨ ـ ١٨٩٤) ؛ وروبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ ـ ١٨٩٤) ، ثم شاعر التاج لورد آلفرد تنيسون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٢) ونحن نترجم هنا قصيدة هذا الأخير التي نظمها بعنوان (The Revenge : الانتقام) ـ وهو اسم السفينة التي أبت هذا البلاء ـ مجتزئين بتفاصيل القصيدة الرائعة عن الإفاضة في هذه المقدمة أكثر مما أفضنا ؛ معتمدين ـ في إيضاح بعض الحقائق فقط ـ على ما أورده الكتاب الثلاثة الذين أشرنا إليهم ، ولا سيما أولهم : والتر رالى ، فهو من معاصري السير ريتشارد جرانفيل بطل المعركة ، بل هو أحد مواطنيه من إقليم ديفون ، وذوي قرابته الأدنين . . .

ترجمة القصيدة

كان السير ريتشارد جرانفيل مرفئاً بسفينته إلى جُدّة[1] من جدد شاطئ الفورز إحدى جزر الخالدات[2] ، عند ما أقبل زورق ذو مجاديف يهوي من بعيد كأنه الطائر يزف بجناحيه . وارتفع صوت من داخله يقول : السفن الحربية الأسبانية تمخر العباب ... لقد رأينا منها ثلاثاً وخمسين !

(١) الجدة والجد ، بالضم : الموضع الذي ترفأ فيه السفن

(٢) Azores Islands مجموعة جزر في المحيط الاطلنطي عند متقاطع خطي ٣٩ شمالا و ٢٧ غرباً . استكشفها البرتغاليون عام ١٤٤٢ م

فهتف لورد توماس هُوَارد قائلاً :

ليشهد الله أنى لست بالجبان ، ولكنى لا أستطيع أن ألقاهم على هذه الحال ، فأسطولى على غير أهبة ، ونصف رجالى قد نهكتهم العلل . حقيقٌ بى أن أعرِّد عن لقائهم ولكن لأفتق آثارهم فى أقرب حين ... إن لدينا ستا من السفن القاتلة ، فهل نستطيع أن نناجز بها ثلاثاً وخمسين ؟[1]

عندئذ تكلم سير رتشارد جرانفيل قائلاً : أعرف أنك لست بالضَّرَع ولا الجبان ، وأنك لا تحتاز عنهم لحظة إلا لتعود إليهم من قريب ، فتزلزل أقدامهم وتطيش سهامهم . أما أنا فلدى تسعون مريضاً وثيقاً قد استلقوا على الشاطئ القريب يعالجون غصة الداء ؛ وسأعد نفسى الجبانَ ، ياسيدى لورد هوارد ، إذا أنا تخليت عنهم لهذه الطغمة من أوغاد محاكم التفتيش ، وشياطين أسبانيا المتمردين ...

... وهكذا انسحب لورد هوارد بخمس من السفن الحربية فى ذلك اليوم ، وانطلق موغلاً فى اليم حتى ذاب كما تذوب السحابة فى صفحة الأفق الغارق فى الصمت ، المتشح بالدفء والسكون . أما سير رتشارد فقد حمل من الشاطئ رجالَ سفينته الأعلاء ، من مواطنيه أبناء بدفورد فى إقليم ديفون . وأضجعهم برفق تام وعناية بالغة فوق الهواجل[2] من قاع السفين ، فراحوا يدعون له ويباركونه فى ساعات آلامهم المضنية على أن انتاشهم من هذه المحنة ، فلم يتركهم فريسة للأسبان يمثلون بهم أشنعَ التمثيل ، ويسومونهم بمعدات نكالهم سوء العذاب

* * *

كان لديه مائة من البحارة لا أكثر ، عليهم أن يضطلعوا بإدارة السفينة وتدبير القتال معاً ؛ فأقلع مبتعداً عن الفلورز حتى أصبح على مرمى البصر من الأسبان الذين اعترضوا مهب الريح إلى سفيلتنا بقصورهم الموائم الفخمة وجواريهم المنشئات كالأعلام . وارتفع صوت منا يقول :

ألا أخبرنا يا سير رتشارد ، أنكسرٌ أم نفرٌ ؟ ... إن اشتباكنا فى هذا القتال لا يعنى غير الهلاك ؛ وما نحسب أنْ سيكون منا فى عداد الأحياء إلا القليل عند ما تجنح شمس هذا النهار إلى مغربها .

وتحدث سير رتشارد مرة أخرى فقال : نحن جميعاً من أبناء انجلترا الأنجاد وفتيانها المصاليت ؛ فدعونا نسدد الطعن وَخْضاً إلى هذه الكلاب (الإشبيلية) الخواسئ ، أبناء الأبالسة ونسل الشياطين . . .

لا جرم أنى حتى اليوم لم أُولِّ الأدبار أمام أحد اثنين : دُونِ Don أو شيطان !

نطق السير رتشارد بهذا ثم افتر فمه عن ابتسامة ساخرة . وانفجرنا جميعاً نهتف فى صوت مدوٍّ : مرحى ، مرحى ! ... وهكذا صممت « الانتقام » صَمْدَ عدوها دون محاشاة ، وعلى ظهرها مائة مقاتل ، وفى جوفها تسعون مريضاً قد أدامتهم العلل وبرَّحت بهم الأسقام .

وانشعب الأسطول الأسبانى حول « الانتقام » شطرين راحا يكتنفانها عن يمين وشمال ، بينما اندفعت هى فى الشقة الضيقة من الماء بينهما لا تلوى على شىء . وشهدنا ألوفاً من جنودهم قد أوفوا علينا من ظهور سفائنهم وهم يضحكون ، وألوفاً آخرين من بحارتهم يسخرون من الركب الصغير الذى ركب فيما زعموا متن الغرور ، وأحكم نفسه بلقائهم المتالف . وراحت « الانتقام » تندفع وتندفع ، وتوغل فى تقدمها وتوغل ، حتى بحدت فى موضعها ما تريم ؛ وقد سدت عليها السبيل خليَّتهم الضخمة (سان فيليب) تلك الناهضة كالطود الشامخ ، والحاملة جُلَّاء ألف من الأطنان وخمسمائة . فقد أوفت علينا بهيكلها الرائع من علٍ مصوِّبةً نحونا صفوفاً من المدافع فاغرات الأفواه ، وصرفت وجه الريح عن أشرعتنا فوقفنا مُبلسين[3] .

(البقية فى العدد القادم) محمود عزت عرفة

(١) لورد توماس هوارد هو قائد الأسطول الأعلى على عهد الملكة اليصابات وقد كان لديه — ع ا ما ذكر — ست سفن أخرى صغيرة للتموين ، وزورقان أو ثلاثة من زوارق الاستكشاف الخفيفة ، يقود أحدها الكابتن مدلتون ، وهو الذى جاء منذراً باقتراب العمارة الأسبانية

(٢) الهواجل : الحجر تثقل به الزوارق أو المراكب

(١) كانت سان فيليب من عظام السفن ، تحمل ثلاثة صفوف من المدافع الجانبية يتألف كل منها من إحدى عشرة قطعة . وفى مقدمها ثمانية مدافع فضلا عن مدافع المؤخرة .